العرب
الإثنين 2020/03/30
السنة 42 العدد 11662

أسئلة يمنية من دون أجوبة

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

بعد خمس سنوات على انطلاق "عاصفة الحزم"، عبر التحالف العربي بقيادة المملكة العربية السعودية، لا تزال هناك أسئلة يمنية من دون أجوبة. من بين هذه الأسئلة هل لا يزال هناك مستقبل لليمن الموحّد، أم أنّه تشظّى، مع ما يعنيه ذلك من ضرورة البحث عن صيغة جديدة لبلد ذي أهمّية استراتيجية كبيرة، خصوصا بسبب شريطه الساحلي الممتد من بحرب العرب إلى البحر الأحمر. طول هذا الشريط 2500 كيلومتر تقريبا.

من الصعب تصوّر بقاء اليمن موحّدا. الصعب أكثر العثور على صيغة تؤمّن حدّا أدنى من الاستقرار في كلّ المناطق اليمنية، بما يسمح بمعالجة المشاكل التي تجمع بين اليمنيين كلّهم. في مقدّم هذه المشاكل الجوع والفقر والتخلّف على كلّ صعيد وانتشار الأوبئة... وغياب التعليم.

بعد خمس سنوات على انطلاق «عاصفة الحزم»، لا يزال مستقبل اليمن في مهبّ الريح. لا يزال البحث عن صيغة قابلة للحياة تسمح بإنقاذ ما يمكن إنقاذه في بدايته

في المقابل هناك أسئلة ذات أجوبة. من بين هذه الأسئلة لماذا كانت "عاصفة الحزم" وهل حقّقت أهدافها؟

بغض النظر عن كلّ ما قيل ويقال عن العملية العسكرية المستمرّة منذ خمس سنوات، لا يمكن عزل "عاصفة الحزم" عن الاندفاعة الحوثية، التي تقف خلفها إيران، والتي تلت مباشرة وضع ميليشيات مسمّاة "أنصار الله" بقيادة عبدالملك الحوثي يدها على صنعاء في الواحد والعشرين من أيلول – سبتمبر 2014. لا يمكن تجاهل أن ستة أشهر مرّت بين استيلاء الحوثيين على صنعاء وبين انطلاق "عاصفة الحزم". في الأشهر الستة تلك حصلت أمور كثيرة. من بين هذه الأمور تمدّد "أنصار الله" في كلّ الاتجاهات، وصولا إلى عدن وميناء المخا الاستراتيجي. فوق ذلك كلّه، وقّع الحوثيون الذين باتوا يتصرّفون كأنّهم الحكومة الشرعية في اليمن، اتفاقا مع السلطات الإيرانية المختصة لتسيير عدد كبير من الرحلات الأسبوعية بين طهران وصنعاء. في الوقت ذاته، أجرى "أنصار الله" مناورات بالذخيرة الحيّة في منطقة قريبة من الحدود السعودية.

أعطى عبدالملك الحوثي بين خريف 2014 وربيع 2015 كلّ الإشارات المطلوبة لإثارة كلّ أنواع المخاوف في الدول الخليجية من تحوّل اليمن إلى جرم يدور في الفلك الإيراني. ما لا يمكن تجاهله في تلك المرحلة أن إدارة باراك أوباما كانت في مرحلة تقارب مع إيران. تُوّجت تلك المرحلة بتوقيع الاتفاق في شأن الملفّ النووي الإيراني في شهر تموز – يوليو 2015. قبل توقيع الاتفاق، الذي ما لبث الرئيس دونالد ترامب أن مزّقه، كانت واشنطن على استعداد للتغاضي عن كلّ ما يمكن أن تفعله إيران خارج حدودها.

يمكن وضع "عاصفة الحزم" في سياق حرب دفاعية، قد تكون إيران شجعت عليها مستخدمة "أنصار الله" الذين اثبتوا استعدادهم للعب كلّ الأدوار المطلوبة منهم من دون أن يقف عبدالملك الحوثي أمام المرآة ويسأل نفسه ما المشروع السياسي والاقتصادي والحضاري الذي يستطيع طرحه على اليمنيين، باستثناء شعار مضحك من نوع "الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود"؟

في النهاية، شئنا أم أبينا، أدّت "عاصفة الحزم" إلى تقليص النفوذ الإيراني في اليمن. لم تعد إيران في عدن والمخا، أي لم تعد قادرة على إغلاق باب المندب الذي هو مضيق استراتيجي ذي أهمّية بالنسبة إلى العالم كلّه. هذا كلّه لا ينفي أنّ الحوثيين عادوا أخيرا من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم بعدما رسّخوا وجودهم في صنعاء ومحيطها، ووصلوا إلى الجوف في وقت ليس فيه ما يشير إلى أن مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة مارتن غريفيث يمتلك أيّ رغبة في خروجهم يوما، بطريقة أو بأخرى، من ميناء الحديدة الاستراتيجي.

مع وضع "عاصفة الحزم" في إطارها، هناك مجموعة أسئلة أخرى لا أجوبة عنها بعد، مثل هل يمكن الرهان يوما على هامش للمناورة يمتلكه الحوثيون تجاه إيران؟ هل يمكن إدخالهم في تسوية سياسية تؤدي إلى قيام دولة خاصة بهم عاصمتها صنعاء في إطار فيديرالي؟ هل صحيح أنّ الحوثيين لا يُمثلون رأي أكثرية المنتمين إلى المذهب الزيدي في اليمن؟

مؤسف أن تجربة قطاع غزّة لا تُطمئنُ إلى مستقبل المناطق التي يسيطر عليها الحوثيون في ظلّ رغبة دولية، وربّما إقليمية، في حصر الوجود الحوثي في الجزء الشمالي من اليمن، مع إبقاء الوضع على حاله في تعز، عاصمة الوسط الشافعي من جهة، والسعي إلى إيجاد تسوية ما في الحديدة من جهة أخرى. تسيطر "حماس" على غزّة منذ منتصف العام 2007، ليس في العالم من يسأل عن الحال المزرية لمليوني فلسطيني محشورين في قطعة أرض ضيقة. من سيسأل عن اليمنيين الذين سيقيمون طويلا في دويلة الحوثي في ظروف لا تقلّ بؤسا عن ظروف أهل غزّة؟

ما هو مهمّ من الناحية الاستراتيجية الساحل اليمني الذي أصبح في معظمه خارج سيطرة إيران وصار يشكّل جزءا من منظومة أمنية تتجاوز اليمن إلى منطقة القرن الأفريقي وبحر العرب وخليج عدن والمناطق المحيطة، بما في ذلك جزيرة سقطرة. الأكيد أنّ تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها في مرحلة معيّنة. هذه تساؤلات ذات علاقة بمستقبل محافظة المهرة التي لديها حدود مشتركة مع سلطنة عُمان.

بعد خمس سنوات على انطلاق "عاصفة الحزم"، لا يزال مستقبل اليمن في مهبّ الريح. لا يزال البحث عن صيغة قابلة للحياة تسمح بإنقاذ ما يمكن إنقاذه في بدايته. ما يعيق تحقيق أي تقدّم، انطلاقا من تراجع الحوثيين في مرحلة معيّنة، ثمّ عودتهم إلى الهجوم، هو غياب "الشرعية" القادرة على توفير نوع من الأمان والطمأنينة للناس العاديين. الدليل على ذلك أن الوضع في عدن يتدهور يوميا على الصعيد الأمني في غياب أي قدرة لدى "الشرعية" على التعاطي بشكل إيجابي مع القوى الموجودة على الأرض، والتي يمكن أن تساعد في تحقيق حدّ أدنى من الاستقرار. لذلك، لا يمكن الحديث عن أيّ أمل بالنسبة إلى اليمن، أقلّه في المدى القريب.

ما حققته "عاصفة الحزم" من إيجابيات على الأرض في مرحلة معيّنة، على الرغم من كلّ الضحايا البريئة التي سقطت، يمكن أن يضيع في غياب التفكير الجدّي في إعادة تشكيل "الشرعية" التي على رأسها الرئيس الانتقالي عبدربّه منصور هادي.

ليس كافيا تأمين معظم الساحل اليمني وربطه بشبكة أمنية إقليمية. لا مفرّ، عاجلا أم آجلا، من عودة إلى مناقشة الموضوع اليمني من زاوية مختلفة. زاوية البحث عن صيغة قابلة للحياة تضمن حدّا أدنى من الحياة الكريمة لجميع اليمنيين. هل معنى ذلك، أن ثمّة حاجة إلى انتظار الانهيار الإيراني، الذي هو انهيار لمشروع توسّعي فقد كلّ أفق له وتبيّن مدى إفلاسه في ضوء العقوبات الأميركية ووباء كورونا؟

القضاء على الميليشيات الإيرانية حاجة عراقية

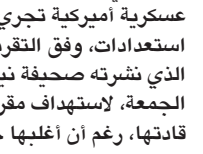

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

لا يُتَوقع أن يتم القضاء على الميليشيات المسلحة الموالية لإيران في العراق بضربة أو ضربات عسكرية أميركية تجري حولها استعدادات، وفق التقرير الصحافي الذي نشرته صحيفة نيويورك تايمز الجمعة، لاستهداف مقراتها وبعض قادتها، رغم أن أغلبها حاليًا في طهران والبعض الآخر قد انتقل إلى مواضع بديلة.

الصحيفة أنهت التقرير بعبارة ملفتة هي أن "الرئيس لم يقرر خلال اجتماع جرى في البيت الأبيض توجيه ضربة لكنه سمح باستمرار التخطيط".

ويكشف ذلك حالة الانقسام داخل مؤسسات البنتاغون ووزارة الخارجية والبيت الأبيض بشأن ما تقدمه هذه الضربات من أهداف مثل إزاحة تلك الميليشيات أو انفتاح ظروف عسكرية ضد إيران لا يمكن السيطرة عليها.

لم تعد سرًا المكانة التي تحتلها الميليشيات المسلحة في العراق لدى نظام خامنئي، باعتبارها النموذج الحيوي الذي لا يمكن تعويضه للمحافظة على نفوذه في العراق والمنطقة، قد يمكن التضحية بسياسيين أصبحوا قادة وزعماء في حكم العراق، وبعضهم سبب وجع رأس للنظام الإيراني بسبب فضائح سرقاتهم، لكن تلك المكانة تبقى مرتبطة بمدى تسهيل مهمتهم لتلك الميليشيات.

ولعل الخلاف على المكلف الحالي لرئاسة الوزارة عدنان الزرفي يقع داخل هذه التقديرات والاعتبارات في دائرة الملف العراقي في طهران التي خلفت مقتل قاسم سليماني.

مثلاً هادي العامري ومقتدى الصدر اللذان يتزعمان أكبر قوتين ميليشياويتين وبرلمانيتين ما زالا يحتلان مكان الصدارة في الرعاية لدى خامنئي لاعتبارات سياسية، رغم مزاحمتهما من قبل جيل جديد كأدوات أكثر حيوية في تنفيذ رغبات الحرس الثوري مثل العصائب وحزب الله والنجباء وأبوالفضل العباس.

مراكز الزعامة الميليشياوية تأثرت بظروف الاحتلال العسكري الأميركي لحد عام 2011 حيث كان مقتدى الصدر يعتبر نفسه رمزا شيعيا وحيدا لمقاومته، في حين انغمرت منظمة بدر وزعماؤها في إغراءات السلطة التي أصبحت زعامات جديدة تتنافس على مغانمها وقد تتقاتل إن لزم الأمر على تلك المغانم بعد انفتاح خزائن العراق وفق معتقد خرافي يقول إن هذه الأموال هي "مغانم شرعية" ومكاسب تنزلت عليهم وحدهم بسبب نضالاتهم ضد نظام صدام، وليست ثروات شعب يستحق الحياة في ظل دولة ونظام جديد، وواقعهم الحقيقي يقول إنهم مجموعة لصوص ذوي مهارات خاصة تابعين لمافيات النهب والفساد في إيران.

ظلت الأحزاب الشيعية واجهات سياسية لتلك الميليشيات المسلحة، تتفاوت درجة الثقة برئيس الوزراء كحاكم أول بمدى قربه وتسهيله لمهمات تلك الميليشيات رغم الفجوة الكبيرة التي أحدثها خلاف رئيس الوزراء الأسبق، نوري المالكي مع مقتدى الصدر، حيث حاول إشعار طهران بأن مؤهلاته السياسية تتفوق على رجل دين شاب لا يمتلك، في نظره، سوى تاريخ عائلته في المرجعية الشيعية، وعبّر عن دعمه للميليشيات لدرجة اعتبر نفسه أباها الروحي.

حين حاول رئيس الوزراء الأسبق حيدر العبادي وضع مسافة بينه وبين تلك الميليشيات وتقنينها داخل مؤسسة رسمية عام 2016 عجز عن تحقيق مهمة حصر السلاح بيد الدولة بسبب انشغاله بالحرب على داعش، ثم التداخل المدبر الذي مرره قاسم سليماني لتعزيز مكانة تلك الميليشيات في الحكومة والبرلمان. ونزل الغضب الإيراني عليه وتم وصفه بالأميركي رغم أنه ليس كذلك، بل يوصف بأنه من تركيبة فكرية وسياسية شيعية تؤمن بوحدة المصير الشيعي، واحتدم الخلاف بينه وبين أبي مهدي المهندس الذي أصبح قبل مقتله ركنا أساسيا في الشبكة العراقية الواسعة من الميليشيات الإيرانية والجهات الوكيلة لإيران. والذي وضع موته تلك الشبكة في حالة صراع على الزعامة فيما بينها من جهة، وبين الزعامات السياسية القلقة على مصيرها السياسي بعد انتفاضة أكتوبر 2019 من جهة ثانية.

الضربات العسكرية الأميركية قد تقوّي الميليشيات الإيرانية إن لم تكن ضمن برنامج متكامل لإخراجها من المعادلة العسكرية، مع أن تلك الضربات ستضع تلك الميليشيات في حالة من الخوف والإرباك

زعامات الميليشيات الموالية لإيران تحاول عبثا في هذه الأيام العصيبة التي تواجهها وتهدد بانهيارها الإيحاء للأوساط السياسية بأنها صمام الأمان لبقاء تلك الأحزاب في السلطة، فتقيم الاستعراضات العسكرية الشكلية في شوارع بغداد للتعبير عن ذلك، وإن عجزت تلك الأحزاب عن منع تمرير عدنان الزرفي فإن تلك الميليشيات ستحضّر لانقلاب سياسي وعسكري في القصر يستبدل رئيس الجمهورية ويزيح رئيس الوزراء. لكن هذه الميليشيات تعلم جيدا أن شباب العراق بانتفاضتهم قد أعلنوا رفض وجودهم والترحيب بأية محاولة لإنهاء هذا الوجود الخطير.

إيران عاجزة في الظروف العصيبة التي تمر بها على تغطية متطلبات شبكة ميليشياتها في العراق ولبنان وسوريا واليمن بعد انهيار نظامها العام بسبب كورونا والعقوبات الأميركية، يرافق ذلك عجز الميزانية العراقية التي سيتعذر عليها تقديم ذلك المستوى من الدعم، رغم أنه لن يوقف النهب بل ستكون أساليبهم في السرقة أكثر مكرا لتغطية متطلباتهم وتقديم العون للنظام الإيراني أيضا، ولا يتوقع لقادة الأحزاب الفاسدة في العراق تقديم جزء مما يمتلكونه من مليارات مسروقة كمعونات مالية لتلك الميليشيات، فلا وجود لمنطق العون في نظام المافيات حين يحاصرها الهلع والخوف على المصير.

الضربات العسكرية الأميركية قد تقوّي الميليشيات الإيرانية إن لم تكن ضمن برنامج متكامل لإخراجها من المعادلة العسكرية، مع أن تلك الضربات ستضع تلك الميليشيات في حالة من الخوف والإرباك، وقد تضطر إلى إخفاء مواقع صواريخها الإيرانية في أماكن أقل خطورة على القواعد العسكرية الأميركية التي تقلصت أخيرا، أو على مقربة من حدود جيران العراق العرب، أو قد يقودها ذلك إلى ردود فعل عسكرية هستيرية ضد الشباب الشيعي المنتفض. مشكلة واشنطن هي عدم قدرتها على نزع النفوذ السياسي للميليشيات بعد أن كرست وضعها في البرلمان في السنوات الأخيرة.

يمكن أن يحدث السيناريو الذي يتحدث عن دعم توجه رئيس الوزراء المنتظر عدنان الزرفي لتغيير جدي في بنية الحكم السياسية عن طريق الانتخابات المبكرة بعد نزع أسلحة الأحزاب وميليشياتها، وهذا هو الميدان الحقيقي لكسب المعركة ضد الميليشيات الإيرانية في العراق.

إيران بارعة في إخفاء سياساتها الماكرة، عبر وكلائها، ضد شعب العراق الذي بحاجة إلى عون أصدقائه وأشقائه لاستعادة استقلاله وسيادته، ولا يهم العراقيين أن تفتح واشنطن حربا مع إيران إن كان ذلك بابا لاستقلال بلدهم إن كانت صادقة في ذلك.